الدور الأردني الهاشمي منذ بدء العدوان على غزة

د. جواد العناني

آخر من يتوقع المديح على ما يقدمونه من أجل فلسطين وشعبها ومستقبلها هم الأردنيون، وعلى رأسهم أولو الأمر من أبناء هاشم، ومن بعدهم فئات الشعب الأردني. وهم يقدمون التضحيات لفلسطين واهلها لا منّة، ولا افتخاراً، وانما هي ردة فعل طبيعية نظمتها وعبرت عنها التجارب العميقة المشتركة، والصلات الوثيقة والغيرة على مصلحة الأخ ونصرته عندما تلم به أزمة أو كارثة. ويهب الأردن لمناصرة أهل فلسطين بفطرة من يدافع عن نفسه وأولاده وفلذات اكباده، فما اختلفت بين الأردن وفلسطين وجوه عن وجوه، ولا الضاد الفصيح ولا الكتاب سواء كان القرآن أم الإنجيل. كلانا سبط لجبلة واحدة، من تربة واحدة، فها توأمان إنْ أحس أحدهما بالخطر تداعى له التوأم الآخر بالحمى والسهر.

وقد قدم الأردن لأهله في فلسطين منذ السابع من اكتوبر قبل سنة المساندة والدعم بأسلوب يغطي أربعة محاور أساسية: هي أولاً دفع الأذى ومنع الضرر. وثانياً تقديم العون الإنساني والغذائي والدوائي والسياسي بأكبر قدر ممكن في ضوء التحديات الكبار. وثالثاً بناء موقف متكامل مقنع ليقف في وجه الإعلام المضلل والكاذب. والرابع السعي مع الجهات ذات التأثير لبناء تصور مستقبلي يؤمن للفلسطينيين والمدنيين من كل الجهات حياة افضل ومستقبلاً أكثر أمنا وإشراقاً.

أما في مجال منع إسرائيل ومن يساندها من زيادة الأذى والافراط فيه وسرقة مستقبل الشعب الفلسطيني وإذابة الاهتمام به، فقد سارع الأردن إلى حشد الرأي العام العربي والاسلامي والدولي للانتباه لما تفعله حكومة اسرائيل المتطرفة برئاسة نتنياهو. وقد صيغت مواقف الأردن وخطاباته ولقاءاته بلغة قوية، وبالاعتماد على معطيات القانون الدولي الانساني، ومحاربة المخالفات الاسرائيلية والممارسات اللاانسانية ضد المدنيين، والحديث الى الاطراف الاقليمية والدولية ذات التأثير. وقد ساهمت الدبلوماسية الأردنية في محاربة محاولات المتطرفين لضم أراضٍ فلسطينية إلى اسرائيل، أو محاولات استغلال ظرف الحرب لتغيير الأمر الواقع في الأماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية، والدفاع عن سكان القدس وما حولها حتى لا تقوم اسرائيل بتهجيرهم من القدس الى اي مدن أخرى في فلسطين. وفتحت الباب على مصراعيه للتبرعات من أجل الحفاظ على الممتلكات والأراضي في القدس، ومجابهة الاجراءات الاسرائيلية لتهجير أهل فلسطين من مدنهم وقراهم، وبخاصة مدينة القدس.

وكذلك كان للأردن مواقف واضحة حيال قيام بعض الدول بالتطبيع دون مقابل، وشجعت بعض الدول التي طبعت مع إسرائيل أن تضغط عليها لكي تخفف من اجراءاتها الحارمة للفلسطينيين من العمل، والتصدير، ومن فتح اسواق الضفة الغربية أمام السلع الأردنية والعربية.

وقد أثمرت جهود الأردن حتى قبل السابع من اكتوبر في منع اسرائيل من ضم وادي الأردن ومنطقة البحر الميت لاسرائيل كما طالب رئيس حكومة اسرائيل نتنياهو التي وقعت الاتفاقات الابراهيمية بحضور ترامب رئيس الولايات المتحدة وكل من وزيري خارجية دولتي الإمارات العربية المتحدة والبحرين ونتنياهو الذي خاطب الرئيس الأميركي قائلاً "اشكرك فخامة الرئيس ترامب على تفهمك لحاجات اسرائيل الاستراتيجية في الدفاع عن نفسها بضم كل من الجولان السورية ومنطقتي وادي الأردن والبحر الميت الفلسطينيتين" ومع أن الرئيس ترامب تجاوب بالموافقة على ضم الجولان الا أنه أغفل ذكر ضم منطقتي وادي الأردن والبحر الميت بسبب المساعي الأردنية الدبلوماسية التي قادها جلالة الملك في التذكير بأن مثل هذا الضم مخالف للمادة الثالثة من اتفاقية السلام بين الأردن وإسرائيل، وبأنها مخالفة للمقدمة التمهيدية لبنود تلك المعاهدة، والتي نصت على أن كلا الطرفين يمتنعان عن اتخاذ اي إجراءات تعرض أمن الجانب الآخر للخطر.

وكذلك، فإن اعادة التأكيد على الوصاية الهاشمية للأماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية بالقدس والتي جُدد توقيعها بين جلالة الملك عبدالله الثاني وسيادة الرئيس محمود عباس عام (٢٠١٣) قد اكدت أن مساعي المتطرفين لتهويد المدينة ستحارب، أو التقليل من دور الأردن في حماية الأقصى مرفوض مع الإصرار على اشراف الأردن على الأوقاف الاسلامية والمدارس الاسلامية داخل القدس الشريف. كل هذه المساعي هي التي حالت دون نجاح المحاولات الإسرائيلية لتهويد هذه المناطق، أو لبناء الهيكل المزعوم، أو لتغيير المناهج، أو التأكيد على هوية القدس المسيحية والإسلامية.

ومع أنه ومنذ السابع من اكتوبر قد ارتفعت وتيرة محاولات المتطرفين من الاسرائيليين لتغيير الأمر الواقع داخل حرمة المسجد وقبة الصخرة المشرفة والساحات، وفي تشجيع اليهود على ممارسة الصلوات التلمودية داخل حرمه، الا أن الأردن قد ساهم في ضبط هذه المحاولات وصد بعضها. وما تزال المعركة في هذا الاطار طويلة، ولها تفاصيل كثيرة تتعلق بالمدارس التلمودية داخل منطقة الحرم الشريف، وفي توسيع استخدام بوابات الأقصى لتمكين اليهود المتطرفين من الوصول لساحاته، إلا أن هنالك ايضاً قصص نجاح دعمها الأردن ملكاً وحكومة وشعبا، في الحفاظ على الأوقاف الإسلامية.

ويجب ان نذكر في هذا الاطار ان الخطاب والفعل السياسي الأردني بقيادة جلالة الملك، وبدعم من صاحبة الجلالة الملكة رانيا، وسمو ولي العهد الأمير الحسين قد نجحت كلها في ربط السكان المسلمين والمسيحيين بالأرض والقضية، وفي تفويت الفرصة على اسرائيل بقدر المستطاع لاخلاء القدس من أهلها الفلسطينيين المسيحيين حتى لا يتحول الصراع على حق الملكية مسألة نزاع ديني بين اليهود والمسلمين.

أما من حيث الفعل الإيجابي الأردني، فقد تحرك الملك ووزير الخارجية وكبار المسؤولين في كل اتجاه من أجل شرح الأبعاد اللاانسانية والقتل الجماعي وحرمان الشعب الفلسطيني من أبسط حقوقه الانسانية في الطعام والشراب والمسكن والعلاج والماء والدواء، وتوفير الأمن له من اسلحة التدمير الفتاكة مما حرك الضمير العالمي. ولا شك أن موقف الأردن القوي هو الذي حقق هدفين أساسيين: الأول أنه وضع حداً أدنى لمواقف الدول العربية التي تربطها علاقات سياسية مع اسرائيل، بل وكذلك دفعت بعضها لاستثمار تلك العلاقة كوسيلة ضغط على حكومة اسرائيل المارقة.

أما النقطة الثانية المهمة هو نجاح الأردن في استثمار السمعة الدولية التي يتمتع بها من انه دولة سلام تحترم حقوق الانسان، وتعامل أصحاب الديانات والطوائف الدينية المختلفة الاسلامية منها والمسيحية باحترام وعدالة ومساواة من أجل ادانة أفعال الجيش الاسرائيلي في اعتداءاته على المدنيين من أطفال ونساء وشيوخ، ومن هدم المستشفيات والمنازل والمدارس والملاجئ والطرق. وقد ساهمت محاولات الأردن وعلاقاته في عرض هذه الممارسات الاسرائيلية ومرتكبيها أمام محكمة العدل الدولية، والى الحصول على قرار من

«تحرك الملك في كل اتجاه من أجل شرح الأبعاد اللاانسانية للعدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني وسياسة القتل الجماعي وحرمان الشعب الفلسطيني من أبسط حقوقه في الطعام والشراب والمسكن والعلاج والدواء وتوفير الأمن له من اسلحة التدمير الفتاكة مما حرك الضمير العالمي»

«وضع الأردن بالدبلوماسية الملكية منهاجاً فكرياً يقبل به العالم المتحضر في مواجهة الهجمة الاسرائيلية الوحشية ضد الأهل في فلسطين»

(١٢٤) دولة للاعتراف بفلسطين دولة مستقلة قابلة للحياة على الأرض المحتلة عام١٩٦٧ بما في ذلك القدس الشرقية وقطاع غزة. ورغم فداحة الخسائر بين صفوف الفلسطينيين، وبخاصة الأطفال والنساء من قتل واصابات، إلا أن العالم بات يعرف تماماً أن اسرائيل هي دولة بنيت على معلومات كاذبة بأنها دولة ديمقراطية، وأنها الوحيدة في هذا الشأن في المنطقة، وانها دولة محاطة بأعداء يريدون تقتيل اليهود فيها واغراقهم في البحر، لا بل وتبين ان هذه الادعاءات مغلوطة وان اسرائيل هي الدولة المتدينة، وان عقيدتها هي التفوق العنصري وعدم الانتباه لحياة الآخرين وحقوقهم في الحياة الكريمة.

ونذكر في هذا الصدد أن السردية الاسرائيلية التي اعتمدت على شيطنة العرب، وعلى التخويف من الإسلام، وبنت لها قصة توراتية كاذبة، ولم تترك اي وسيلة ثقافية او اعلامية إلا واستثمرتها من أجل تأكيد أباطيلها قد أضحت بعد السابع من اكتوبر موضع تساؤل. وقد رأينا ردة فعل شركات الاتصال الالكترونية تتكالب ضد العرب وتمسح حساباتهم وتحول دون نقل صورة اسرائيل الارهابية الى العالم. وفي الواقع ان معظم هذه الروايات لم تصمد. ودعوني هنا أبين أن أداء الأسرة الهاشمية ومصداقيتهم كان لهما أثر بعيد في تغيير الصور النمطية ضد المسلمين والعرب وأهل فلسطين بالذات. وقد كانت خطابات صاحب الجلالة الملك عبدالله في الامم المتحدة والمنتديات الأوروبية ولقاءاته الدبلوماسية والسياسية تحمل خطاباً قوياً للعالم تحذر فيه من آلة القتل الاسرائيلية، واستمرار الحرب. وتوسيع رقعتها على جبهات متعددة. وقام كذلك جلالة الملك بالكلام عن حقوق الانسان، وانتقاد المعايير المزدوجة، وبين ان تجميد وسائل العقاب والثواب الدولية في ملاحقة الممارسات الإجرامية هي التي منحت حكومة إسرائيل الإستمرار في غيها.

أما البعد الثالث فهو أن الأردن وضع منهاجا فكريا يقبل به العالم المتحضر في مواجهة الهجمة الاسرائيلية الوحشية ضد الأهل في فلسطين. فقد كان الأردن قبل يوم السابع من اكتوبر قد نادى بحوار الأديان، وبالتفاهم بين مختلف الطوائف الاسلامية، وقدم رسالة عمان في التسامح والتآخي بين الديانات التوحيدية ومع الديانات الرئيسية في العالم. وفتح الأردن أبوابه لنصرة اللاجئين، وأرسل آلاف الجنود لحماية السلام وحفظه في أماكن النزاعات الكثيرة في هذا العالم. والأهم من كل هذا أن الأردن قدم انموذجاً محترماً يستحق التقدير في مواجهة الأزمات التي مرت بها منطقتنا والعالم. والأردن لم يعرف عنه العنف ولا الاعتداء على الناس وحقوقهم ولا معاداة اصحاب الآراء المختلفة، ولا حتى أصحاب الايديولوجيات المتباينة، بل تمكن الأردن من الحفاظ على نفسه واستقراره وأمنه عن طريق التماهي مع المبادئ والأعراف الدولية لا عن طريق انكار حقوق الآخرين عليه. وعززها بتهذيب النفس والمرونة في مواجهة الخطوب، وسرعة الاستجابة عند الطوارئ والأحداث المستجدة، وفي التعامل الانساني مع ابناء شعبه ومع المستضعفين الذين لجأوا إليه طالبين الملاذ فيه من الحروب والظلم والقلاقل.

والأردن مشهود له بالوفاء باتفاقاته، وبالتزامه باداء مستحقات الآخرين عليه، وباحترام الاتفاقات الدولية والاقليمية التي يوقعها. ولذلك تكونت له مصداقية عالية حتى عند كثير من يهود العالم الذين لا يقرون ما تقوم به حكومة اسرائيل المارقة. وقد تمسك الأردن بهذه الالتزامات والتعهدات حتى عندما تعرض ابناؤه للقتل. والأردن السمح والوفي لا يريد ان يفهم على ان هذا الموقف ناجم عن ضعف في ارادته او تراخ في عزيمته، بل انه يقف كالطود الشامخ عندما تمس كرامة مواطنيه (موقف الراحل الملك الحسين من محاولة اغتيال السيد خالد مشعل عام ١٩٩٧ في عمان) أو عندما قام موظف في السفارة الاسرائيلية يحمل السمة الدبلوماسية عام (٢٠١٧) بقتل مواطنين أردنيين وطالب باعتبار السفيرة الإسرائيلية شخصاً غير مرغوب فيه، أو عندما اوقف جلالة الملك تجديد اتفاق استثمار منطقتي الغمر والباقورة بعد انتهاء المدة المحددة في اتفاقية السلام. أو عندما جمد اتفاقية تبادل الطاقة المتجددة بالمياه مع اسرائيل عندما قامت باتخاذ اجراءات سياسية اعتبرها الأردن موجهة للاشقاء في فلسطين وللأردن بما لا يتفق مع معاهدة السلام المُوقعة بينهما عام ١٩٩٤.

وفي هذا الاطار وحماية لفلسطين والأردن من اي اجراءات اسرائيلية مفتعلة بسبب الحرب الدائرة حالياً، فان جلالة الملك ورئيس الوزراء ووزير الخارجية قد أكدوا في مناسبات مختلفة سياسة الأردن الثابتة بأن محاولات اسرائيل انتزاع الشعب الفلسطيني من ارض فلسطين هو بمثابة جريمة حرب، وان اي محاولة اسرائيلية لاجبار الفلسطينيين على اللجوء الى الاردن هي بمثابة اعلان حرب عليه وسوف يرد الأردن عليها بكل ما اوتي من قوة متمسكاً بأن لا وألف لا للوطن البديل.

والأردن الذي حذر من اتساع الحرب قد صدقت تنبؤاته وهو يحذر الغرب من ان تقاعسه عن لَجْم اسرائيل المتطرفة عن الاستمرار في غيها وضلالتها. ولكن تبين لنا ايضاً من المفارقات أن الغرب الذي يتحدث معنا بلغة انسانية لا يملك التأثير على مجريات الحرب، وأن الغرب المنحاز الى حد العمى مع اسرائيل لا يريد أن يمارس دوره. ومن هنا بدا لنا الغرب في كلا الحالتين أنه يمارس النفاق، وأنه يعاني من ازدواجية المعايير والخوف من الإسلام الذي يدافع جلالة الملك عن سماحته طوال الوقت.

أما البعد الرابع فهو قدرة الأردن الدبلوماسية والسياسية الفائقة على حشد التأييد لوجهة نظره الانسانية، وعلى التعامل مع إسرائيل بميزان واحد لا يتذبذب، مما جعل اسرائيل تقبل بأن يقوم الأردن بتقديم العون والمساعدات والأدوية والغذاء والملابس ومستلزمات كثيرة أخرى من حر ماله ومال الأردنيين، أو بتيسير نقل المساعداتَ مَن دول أخرى ومنظمات انسانية إلى مناطق غزة والضفة الغربية وغزة. وقد قدم الأردن العلاج لحوالي نصف مليون فلسطيني حتى الآن، وسيستمر في تقديم الدعم مع الحفاظ على جهده الجبار لإيقاف هذه الحرب، والإصرار على حل عادل لأهل فلسطين مُحققاً لهم ما يطمحون إليه من حرية وسيادة واستقلال على أرض فلسطين التراب الوطني للفلسطينيين .